الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون
المؤسسة العامة للآثار
بغداد

سومر

الجزء الاول المجلد الثالث والثلاثون ١٩٧٧
والثاني

مجله علميه تبحث في اثار الوطن العربي وتاريخه

رئيس التحرير
الدكتور مؤيد سعيد
مدير التحرير
علي محمد مهدي

ثبت الجزء

الصفحة		الكاتب
٣	تقديم	الدكتور مؤيد سعيد بسيم
٩	دراسة آثارية مقارنة لتاريخ الآلات الموسيقية في مصر والعراق القديم	الدكتور ضيحي انور رشيد
١٨	فخار نينوى ٧	صباح عبود
٢٥	تل الفخار (كورروخاني) تقرير شبه نهائي عن نتائج اعمال الحفريات ١٩٦٧—١٩٦٨	الدكتور ياسين محمود
٦١	لقى أثرية من جراء اعمال المسح الاثري في اراضي الجزيرة (وسط العراق)	عبدالقادر عبدالجبار
٧٠	المستعمرة الآشورية في آسيا الصغرى	الدكتور سامي سعيد الاحمد
٩٧	من أور كلدان الى ارض كنعان	محمد وحيد خياطة
١٠٤	الشاه محمود النيسابوري خطاط ومذهب	الدكتور عيسى سلمان
١١٢	جرة الرقة الخزفية في المتحف الوطني بدمشق	الدكتور محمد ابو الفرج العش
١١٩	تحريات أثرية قرب الاخيضر	الدكتور كاظم ابراهيم حسن
١٢٦	ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى	الدكتور صالح أحمد العلي
١٤٧	السراج الاسلامي في العراق	خالد خليل حمودي ، نجاة يونس
١٦٤	منجنيق الحضر	تعريب الدكتور وائق اسماعيل

■ التصميم الفني هيفاء عبد الرحمن ـ سهاد علي عبد الرضا ■ تصميم الغلاف الخارجي ٥ هيفاء عبد الرحمن

من اور كلدان الى ارض كنعان

محمد وحيـد خياطـــــة - محافظ متحف الآثار القديمة بحلب

لعلَّ الدوافع الدينية البحتة كانت من أهم الحوافز التي ساقت جحافل المغامرين في القرن التاسع عشر للتنقيب الأثري في منطقة الشرق العربي ، ولم تكن الغاية من هذا التنقيب البحث عن مصادر الحضارة وتاريخ العمران لمجرد الدراسة العلمية ، وانما لاثبات ماورد في النصوص التوراتية ولم يكن علم الآثار آنذاك قد نضج واكتمل بعد بل كان يتعثر في خطواته البدائية الأولى وما أن يكتشف المنقبون شيئا في باطن الأرض ينم عن صلة مباشرة أو غير مباشرة ، من قريب أو بعيد بما ورد في النصوص المقدسة حتى يلاقى بحماس وتعاطف في أوربا ليس فقط في الأوساط الدينية بل في كل الأوساط الجماهيرية المتدينة الباحثة عن الحقيقة وقد استغل بعض الديبلوماسيين والجنرالات المتقاعدين والهواة المغامرين عواطف الجماهير والكنيسة فجمعوا الأموال الطائلة للبحث والتنقيب عن آثار الطوفان في مدينة أور والفردوس والانبياء في تلال ما بين النهرين .

وقد أثار اكتشاف مدينة أور في جنوب بلاد الرافدين ضجة عنيفة في أوربا لم تهدأ حتى يومنا هذا لورود اسمها في اسفار العهد القديم . ورغم أن علم الآثار بدأ يقف على قدميه ويرسي قواعده في معظم الجامعات الاوربية على أسس علمية متينة في أوائل قرننا الحالي الاّ ان السيد ليونارد وولي مكتشف القبور الملكية العظيمة في اور ما زال مصرا حتى أواخر أيامه في عام ١٩٦٠ على ان مدينة أور هي نفسها اور التوراة [١] أي مدينة ابراهيم كما حاول أن يثبت وجود آثار الطوفان بدافع ديني دعائي لمكتشفاته في احدى طبقات المدينة وبذلك استسلم هذا المكتشف العظيم لآراء أسلافه من المنقبين غير العلميين . وفي الحقيقة لم يكن هناك طوفان بالمعنى الذي تحدثت عنه التوراة وانما فيضان محلي عثر على أمثاله في طبقات عديدة في مدن مجاورة ولكنها تعود الى فترات زمنية مختلفة مما يدحض هذه الفكرة [٢] .

ونتيجة المغالاة والتطرف في اثبات صحة الحوادث التاريخية التوراتية من خلال المكتشفات الأثرية ، تشكلت مجموعة من الأثريين في المانيا حاولت أن تنفي كل ابداع فكري أو حضاري أصيل في العهد القديم .

ونسبت الأصالة والابداع الحضاري الى الفكر البابلي وجعلته مصدر كل الحضارات ، ولم تكتف بارجاع قصة الخليقة والطوفان والتهويل في تصوير الجنة والنار الى المعتقدات والأساطير البابلية القديمة بل نسبت الحضارة المصرية والصينية والهندية الى منشأ بابلي محض . غير أن بعض التشابه في حضارات أقطار عديدة لايعني قطعا اقتباس حضارة من حضارة أخرى فقد يحصل التشابه نتيجة الاحتكاك عن طريق التجارة والهجرات لمختلف الشعـوب .

ويكمن فضل هذه الجماعة في أنها درست حضارة الشرق بقصد الدراسة دون أن تعتمد على مؤثرات خارجية فاستقت معلوماتها من مصادرها الأصلية وهي الكتابات المسمارية والمكتشفات الأثرية . ويستمر الجدال عنيفا في الأوساط العلمية الأوربية بين مؤيد ومعارض وتمتلىء صفحات الكتب والمجلات عاكسة كل الآراء المتضاربة حول هذا الموضوع ثم يهدأ أوار هذا الصراع الفكري فترة طويلة من الزمن ليستعر موة أخرى اثر مقال نشرة الأستاذ C.H. Cordon في مجلة دراسات الشرق الأوسط عام ١٩٥٨

حاول أن يفند من خلاله الزعم القائل والمتبنى من قبل عدد كبير من الدارسين . ان مدينة اور التي كشف عنها السير ليونارد وولي في جنوب بلاد الرافدين هي مسقط رأس ابراهيم أي أورالكلدانية ، ويرى المؤلف مدينة أخرى لابراهيم تحمل نفس الاسم شمال بلاد الرافدين قرب مدينة حران [٣] .

ويدعم الاستاذ كوردون نظريته ببعض النصوص المكتشفة في مدينة أوغاريت والتي تذكر اسم بعض التجار الذين كانوا قد استقروا قرب حران في القرن الثالث عشر ق . م في مستوطنة تدعى أورا ويرد اسم أورا في نص رسالة أرسلها أحد الملوك الحثيين الى ملك أوغاريت يذكره بوجوب نقل الحبوب من موكيش الى أورا [٤] ويشير الدكتور ارنست شرتل في مقالة له عن مشكلة الشعب اليهودي أن نص العهد القديم نفسه يثير الشكوك في صحة نسب ابراهيم الى مدينة أورجنوب الرافدين ، اذ يقول النص: ان ابراهيم أتى عبر حران الى أرض كنعان وهذا يعني أن ابراهيم سلك طريقا متعرجة زادت في طول المسافة ، حيث تقع حران في الشمال وكان بامكانه أن يقتصر الطريق لو أنه اتجه غربا ، كما لايعقل أن يهاجر ابراهيم وهو زعيم عشائر بدوية غير متحضرة من مدينة عريقة في الحضارة والمدنية وذات سلطة ونفوذ سياسيين كبيرين تخضع لها معظم دول الدويلات في الشرق الأوسط [٥] ويصف العهد القديم مدينة أور في سفر التكوين بأور الكلدانيين والمعروف عن الشعب الكلداني أنه شعب سامي مزيج من الأقوام البابلية والآرامية والعربية ظهر بهذا الاسم في منتصف الألف الأول ق . م . ويرجح الباحثون تاريخ عصر ابراهيم في بداية الألف الثاني ق . م ولم يكن اسم كلدان معروفا آنذاك ، اذن لابد أن يكون هناك اشكال لغوى سبب الاشكال الجغرافي وقد لاحظ الاستاذ دسسوار عدم منطقية الموقع الجغرافي لمدينة ابراهيم في الجنوب للأسباب التي نوهنا عنها آنفا وافترض موقعها في شمال آسيا الصغرى ، وقد جاءت النصوص الكتابية التي عثر عليها في الأناضول لتدعم نظريته ولم تكن آنذاك مقروءة ومفهومة بعد ، وتبين بعد دراسة النصوص ان هناك دولة في جنوب القوقاز تدعى كلديا ، كانت مسرحا للعديد من الشعوب الهندوجرمانية كالليديين والليكريين والاتروسكيين ، وورد في النصوص أيضا اسم قبيلة تدعى ابرو وقد فسّر بعض العلماء هذا الاسم بالعبري اوالعبراني وقد دحرت هذه الشعوب تحت ضربات شعوب هندوجرمانية أخرى تحمل اسم كلدية نسبة الى الاله القومي كالد وتسمية الشعوب بأسماء آلهتها عادة متبعة لدى كثير من الشعوب كالآشوريين نسبة الى آشور والعموريين نسبة الى عمورو. وجاءت موجة اخرى من الشعوب الهندوجرمانية من الغرب الى الشرق باسم الأرمانيين حلوا محل الكلدانيين واعطوا المنطقة اسمها الحالي ارمينية وتوزعت بقية الشعوب في ارجاء الارض المختلفة . فان صحت هذه النظرية وعلى الأخص التفسيرات اللغوية فيكون العبريون من اصل هندوجرماني استوطنوا المنطقة الواقعة جنوب القوقاز وليس جنوب الرافدين ويصبح مسار هجرتهم اكثر واقعية ومنطقية في حلهم وترحالهم بعد أن حملوا في ذاكرتهم اسماء تلك المناطق التي سكنوها أو مروا بها كأور الكلديين نسبة الى آله الشعب الكلدي كالد وهاران أخي ابراهيم الذي يرد اسمه أيضا في سفر التكوين نسبة الى حران وناحور اسم الأخ الثاني لابراهيم واسم المدينة التي يرسل اليها عبده ليبحث عن زوجة لابنه اسحق (تك ٢٤–١٠) وكلمة ابرو أوخابيرو اسم قبيلة يتردد ذكرها كثيرا في نصوص القرن الخامس والرابع عشر ق . م . أي في الفترة التي تعرضت لها منطقة الشرق الأوسط لغزوات هندوجرمانية جاءت من الشرق الأقصى عبر القوقاز لتحل في وادي الرافدين وتسود فترة من الزمن والكلمة بحد ذاتها لاتعني بالضبط العبريين الذين ذكروا في التوراة كما سنرى ذلك فيما بعد .

وبتبني الشعوب الهندوجرمانية اللغة البابلية السامية لغة الديبلوماسية المتعارف عليها آنذاك تكون قد هجرت لغتها الأصلية نهائيا وعلى هذا الأساس يكون العبريون قد اكتسبوا اللغة السامية في الأرض الكنعانية بالذات وكتبوا بها ويبقى هذا الافتراض نظريا دون دعائم علمية ملموسة وقد حاول الاستاذ اندريه باروأن يركز جل نشاطه الأثري على الطبقة السكنية في ماري (الحاضرة الكنعانية قرب البوكمال على الحدود العراقية ، التي تعود الى بداية الألف الثاني ق . م . أي العصر الذي يعتقد ان ابراهيم عاش فيه ونحن لانعرف للأسف من حضارة ماري في الألف الثالث والرابع والخامس ق . م الا ماندر وعن طريق الصدفة لا لقلة أهمية هذه العصور وانما لتتبع الطريق الذي يعتقد أن ابراهيم سلكه أثناء ترحاله من أور جنوب الرافدين الى حران في الشمال السوري ومن ثم استيطانه ارض كنعان الا أن المنقب الكبير لم يوفق في اقتفاء الأثر اللّهم الا بعض التفسيرات اللغوية المحتملة وغير المحتملة والتي أضيفت الى المراجع الأخرى في خزائن المكتبات دون ان تضيف الى معلوماتنا شيئا جديدا عن صحة موطن ابراهيم في أور البابلية .

وقد استخلص علماء اللغات بعد دراسة النصوص المكتشفة في حاتوشا عاصمة الحثيين « بوغوزكوى حاليا » ، ونوزي شمال العراق وتل العمارنة في مصر وماري في سوريا ان قبائل الخابيرو جنود أشداء أقلقوا منطقة الشرق الاوسط وأشعلوها حربا مما سبب ازعاجا لكثير من الدول المتحضرة في العراق والاناضول ومصر اذ دمروا المدن الآمنة وعاشوا فيها فسادا بعد أن نهبوا ثرواتها وكانوا يعملون مرتزقة لصالح الحثيين تارة والآموريين والكنعانيين تارة أخرى وأحيانا لصالحهم الخاص وبقوا فترة في فلسطين تتراوح بين عام ١٤١١ وعام ١٣٧٥ ق . م . [٥] آ .

أما عن منشئهم الاول وكيف أتوا وماذا حدث لهم فيما بعد ؟ فتصمت النصوص وتصبح معلوماتنا ضئيلة يكتنفها الضباب التاريخي واذا قارناهم مع بقية القبائل الأخرى التي كانت تعيش معهم يتضح لنا أنهم غرباء عن المنطقة ، منشؤهم غيرمعروف كما ان بداية حركتهم غامضة لايقل عنها غموضا اختفاؤها عن مسرح الأحداث مرة واحدة [٦] .

مما تقدم يصعب علينا ربط اسم الخابيرو بالعبريين بأي حال من الأحوال ، فالعبريون كما تصفهم التوراة اناس بسطاء مسالمون يعقدون الاتفاقات مع جيرانهم بحب وتفاهم على عكس الخابيرو المحاربين فربط كلمة خابيرو بالعبريين مرفوض اصلا لما فيه من سعة الخيال وكذلك اشتقاق كلمة عبرى من اسم ابراهيم لايقل عما سبق خيالا وتجاوزا للمنطق ، ونحن نجزم من دراسة نصوص التوراة بالذات بان مدينة اور جنوب الرافدين لم تكن يوما ما موطنا لابراهيم وكذلك مدن الحضارة في كنعان فسفر التكوين يغفل ذكر اسماء المدن الكنعانية المتحضرة ، مثل القدس وراما ودان وساموريا مما يؤكد الطبيعة البدوية العشائرية للآباء الأوائل لبني اسرائيل والتي تتنافى طبيعتها الصحراوية مع العيش في مدن الحضارة ونحن نعلم أن فلسطين كانت خاضعة للنفوذ المصري فترات طويلة من الزمن فكيف لانرى آثارهذا الاحتلال في سفر التكوين ومعلوم أن الجيوش المستعمرة تدخل المدن لتقيم فيها الثكنات والمعسكرات لتؤمن الموارد لجنودها والغلال والاستثمار لدولها بفرض الضرائب على الشعوب المقهورة . أما سكان الصحراء والبادية فلا يتأثرون بالأحداث التي تقع في المدن ومن لايملك ارضا لايملك تاريخا ومنطقة صحراء النقب هي المكان الملائم لجماعات البدو الهائمة مع قطعان الماشية على حدود فلسطين الجنوبية ولكن لماذا اتخذ كتاب التوراة المدن الكنعانية ناهيك عن أور وحران موطنا لآبائهم ؟ هل هناك سبب آخر غير تبرير الاستيلاء على كنعان وصبغها بالصبغة القومية بالانتساب الى شخصيات مبهمة موغلة في القدم ودعم دعواهم تاريخيا باحتلال المدن الكنعانية المقدسة التي وعدهم بها يهوه بكثرة النسل وحكم الشعوب .

ولعل تأثر بعض الكتاب العرب بالأدبيات الاسرائيلية وخاصة فيما يتعلق بشخصية ابراهيم الخليل وانتساب العرب المسلمين له ، جعلهم يقتفون المراجع الاسرائيلية بدافع ديني محض دون أن يتأكدوا من صحة المراجع التوراتية التاريخية ومطابقتها للواقع واليهود الذين دخلوا الاسلام أدخلوا معهم الكثير من الاسرائيليات التي تأثر بها بعض الكتاب العرب ونذكر على سبيل المثال لا الحصر الطبري المتوفى عام ٩٢٢ م الذي يذكر في تاريخه قصة ابراهيم الخليل فيقول « أنه نشأ في قرية بين الكوفة والبصرة يقال لها أور ».

وفي الواقع لم يحدد القرآن الكريم الأماكن الجغرافية ولا الازمنة التاريخية التي عاش في رحابها الانبياء والرسل وعلى هذا يعلّق الدكتور محمد أحمد خلف الله في اطروحته للدكتوراه « الفن القصصي في القرآن » بما يلي :

« المعاني التاريخية ليست من مقاصد القرآن في شيء ومن هنا أهمل القرآن مقومات التاريخ من زمان ومكان وترتيب الأحداث.. ان قصد القرآن من هذه المعاني انما هو العظة والعبرة أي في الخروج بها من الدائرة التاريخية الى الدائرة الدينية » ويعقب المؤلف بأن تحرر العقلية الاسلامية من المذهب التاريخي في فهم القصص القرآني له فوائد كثيرة منها : التحرر من الاسرائيليات والتخلص من الفروض النظرية [٧] .

ومن هذه الاسرائيليات وصف ابن حوقل لمدينة بابل التي يقول عنها مدينة النماردة والفراعنة ومن أقدم أبنية العراق عهدا استحدثها الملوك الكنعانيون وسكنوها ومن كان بعدهم ... ويرى آخرون ان الضحاك أول من بناها وسكنها التتابعة ودخلها ابراهيم عليه السلام (صورة الأرض لابن حوقل) ونقل أبوالفداء النص عن ابن حوقل وأضاف اليه « وببابل ألقى ابراهيم الخليل في النار ، وهي اليوم مدينة خراب . وقد صار في موضعها قرية صغيرة » (تقويم البلدان) [٨] ، وقصة انتساب العبريين الى ابراهيم الخليل لم تزل تثير الكثير من التساؤلات والمجادلات دون أن يصل أصحابها الى نتيجة مقنعة ، فالاسرائيليون يرون في ابراهيم أباهم الأول الذي جاء بهم من أوركلدان الى أرض كنعان دون أن يحددوا جنسيته فهو ليس سومريا ولا بابليا ولا كنعانيا ولا كلدانيا غير أن التوراة تعود وتنسبهم في سفر التثنية الى أب آرامي دون ان تذكر اسمه « آراميا تائها كان أبي فانحدر الى مصر وتقرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة » (التثنية ٢٦–٥) كان يقرأ هذا النص أمام المذبح أثناء تقديم الأضاحي لباكورة الغلائل .

وقد افترض بعض المؤرخون وجود نوعين من القبائل السامية احداهما شمالية آرامية وأخرى جنوبية كنعانية وكان ابراهيم رئيسا للقبائل الكنعانية التي انحدر منها فيما بعد بنوا اسرائيل [٩] وقدتبنى هذه النظرية بشكل أوبآخر على ما يبدو الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه أبو الانبياء الخليل ابراهيم ليفسر وصول ابراهيم الى الكعبة وانتساب العرب الى ذريته فحدد وطن ابراهيم عند سيناء وشمال الحجاز « وكان الجنوب مفتوحا له وأيسر له من الشمال ، حيث تجول القبائل التي بلغ من قوتها أن تغير احداها على بابل وتغير الأخرى على مصر ، فأيسر من اجلائها عن ارضها أن يبقى حيث هو أويمعن في الجنوب ويستقبل الحجاز» ص ١٦٠ [١٠] ، ويرسم الاستاذ العقاد خط انتقال ابراهيم كما يـــلي :

وفي مدينة أور بدأت دعوة ابراهيم ، والى مدينة آشور انتقلت (يفسر المؤلف اسم آزر أبي ابراهيم كما يرد في القرآن بآشور) ... فمن آشور الى حبرون اوبيت المقدس ، الى مدن خليج العقبة الى مدينة الحجاز المقدسة ، وعندها نهاية المطاف [١١] .

ذكرنا فيما تقدم أن الآباء الأوائل كانوا رؤساء عشائر هائمين على حدود دول المدن الكنعانية وعلى الأخص في منطقة صحراء النقب ومعروف حتى اليوم إن قبائل البدو أو العشائر النصف متحضرة لاتميل الى التعلم والكتابة فمن باب أولى الاّ تعرف القبائل التي كان يترأسها الآباء الأوائل لبني اسرائيل الكتابة لتدون بها تاريخا يمكن الباحث من الرجوع اليه لكشف غموض تلك الفترة وعلى هذا الأساس اضطر المؤرخون اعتماد كتب التوراة التي كتبت في عهود متأخرة جدا من عصر الآباء كمراجع لأبحاثهم بالاضافة الى النصوص التي خلفتها دول المدن الكنعانية والمصرية والبابلية والحثية وعندما تعجز كل تلك النصوص عن اعطاء صورة واضحة وكاملة يبقى الفكر وحده ليحلل الجزئيات والاشارات واللمحات الخاطفة ومن ثم يركب الجزيئات المتناثرة دونما ترتيب على شكل وحدة بنائية مفهومة قد تصيب وقد تخطيء وتبقى في مجال النظرية . وغالبا ماكانت دول المدن المتحضرة تطلق اسم قبيلة بدوية بعينها على مجموعة من القبائل البدوية التي تغير عليها من حين لآخر دون أن تميز بين قبيلة وأخرى مادامت تأتي هذه القبائل مجتمعة من اتجاه واحد وهذا مادعى السومريين لتسمية كل القبائل المتواجدة على حدودها الغربية مهددة أمنها واستقرارها (بمارتو) وهذا الاسم يعادل اسم عموروم في النصوص الاكادية والتعبيران المذكوران مفهومان تاريخيان كانا يورثان من جيل الى جيل والجزء الذي يعني الكل عادة متبعة في الشرق أو في الغرب ولدينا مشابهات لهذه الحالة ولنذكر على سبيل المثال الكلمة الفرنسية (Allemand) والكلمة الفنلدنية (Saksu) اللتين تعنيان الألماني عامة وكلا الكلمتين اسمان لقبيلتين جرمانيتين وكذلك الكلمة السريانية (Tayyaya) اسم قبيلة طي تعني العربي بشكل عام وأقدم مصدر ترد فيه كلمة مارتو يعود الى عهد فجر السلالات السومرية وتعبر عن اتجاه جغرافي (Tum-Mar-tu) اتجاه الريح والمقصود من مارتو الغرب وعلى وجه الدقة الجنوب الغربي وقد حارب الملك الأكادي شاركالي شارى في الألف الثالث.ق.م قبائل العموريين هذه في جبل بشرى الذي يمتد من تدمر حتى الفرات . وقد أطلق بعض الباحثين اسم « الكنعانيين » أو الكنعانية على قبائل العموريين الذين لم يكتبوا نصوصا بلغتهم بعد أن استوطنوا ارض الرافدين بل تبنوا اللغة السامية الاكادية التي سبقتهم وتنازلوا عن لهجاتهم المحلية لصالحها ، غير أن دراسة بعض الأسماء التي ترد في نصوص تلك الفترة تظهر تقاربا شديدا مع الكنعانية التي منها الفينيقية وربما أيضا الأوغاريتية مثل يموت بعل اسم بلد بين شرق دجلة وجنوب ديالى وقبائل مارويعينا التي يقرؤاسمها ايضا بنو يامين وبنيامين التي حاربها زمرليم في الجنوب والغرب من بلاده . اذن فتسميه الشعوب السامية في العهد البابلي القديم بالكنعانية تعود لاعتبارات لغوية فقط الا ان هذه التسمية يساء فهمها اذ تثير في نفس القاريء شعورا بتداعي الأفكار الكنعانية الرافدية (العراق وشمال سورية ، بأرض كنعان التي هي فلسطين ، والعمورية هي احدى لهجات الكنعانية لغة الساحل السوري ويكفي للدلالة على تعدد اللهجات في اللغة الواحدة اللغة العربية في الوقت الحاضر[١٢] .

فما هو موقع بني اسرائيل والاباء الأوائل من كل هذا العرض ؟ يذكر بعض الدارسين لتاريخ الشرق الأوسط على ضوء التوراة أن هناك نصوصا قانونية في العهد القديم تشابه تلك التي لدى الحوريين الميتانيين وأخرى لدى الحثيين في النصف الثاني من الألف الثاني ق . م كما أن الشريعة الموسوية متأثرة جدا بشريعة حمورابي البابلي في بداية الألف الثاني ق . م ومن هذه المقارنة يبرهن التوراتيون على صحة انتساب ابراهيم الى مدينة أور البابلية وانتقاله فيما بعد باتجاه الشمال وتمركزه لفترة مافي مدينة حران ثم استيطانه أرض كنعان معتمدين في ذلك على تأويلات بعض التفسيرات اللغوية التي وردت في نصوص مختلفة في الشمال الشرقي من وادي الرافدين غير أن الدراسة الموضوعية غير المتحيزة تثبت أن بعض القبائل السامية والتي قد تكون من أصل آرامي كانت تنتقل على اطراف الأرض الكنعانية في فلسطين دون أن تدخلها وتتمركز فيها وقد رأينا كيف أن سفر التكوين الذي يسرد ابناء الآباء الأوائل لم يذكر اسم أي مدينة متحضرة في كنعان على عكس الأسفار الأخرى مما يؤكد عدم شرعية النسب التوراتي بالأرض الموعودة على لسان ابراهيم واسحق ويعقوب ويعود هذا النسب في عهود متأخرة جدا من العصر الذي يحتمل أن يكون قد عاش فيه ابراهيم من قبل كتاب التوراة لتثبيت شرعية استيلائهم على الارض بدعوى وجود ماض ديني مشترك عريق في القدم وقد أثبت البحاثة الهولندي الدكتور هوفت جزر في اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه « الوعود الالهية للآباء الثلاثة »[١٣] بعد دراسة مستفيضة لكل نصوص العهد القديم ان كل الوعود التي جاءت على لسان ابراهيم واسحق ويعقوب بالأرض تعود الى وقت واحد في عصر متأخر جدا من زمن الأباء الثلاثة وكانت تظهر هذه الوعود من قبل أحبار اليهود أثناء الأزمات والأخطار التي كانت تهدد وجود بني اسرائيل لتقدم لهم الأمن والاستقرار وتعزيهم بسرد قصص الآباء والمحن التي كانوا يتعرضون لها أثناء حياتهم ، وقد كتبت معظم هذه الروايات على الأغلب أثناء الأسر البابلي لهم حوالي القرن السادس قبل الميلاد وأقدم قسم من العهد القديم يعود تأريخه الى القرن التاسع والقرن الثامن ق . م . وقد جمعت أجزاؤه في مجلد واحد في القرن السابع ق . م وبعد ذلك طرأت تعديلات كثيرة على هذا المؤلف بحيث تلائم حاجات ومتطلبات الظروف التي يعيشها بنو اسرائيل فلم يعد يعرف النص الأصلي لكثرة ماطرأ عليه من تغييرات . أما أسفار موسى الخمسة التي تشكل مايسمى بالتوراة والتي تحكي قصة الوعد بالأرض وخروج ابراهيم من اور الكلدانية الى حران فقد كتبت في القرن الخامس ق . م . أي أثناء الأسر البابلي .

واذا ما عدنا لدراسة القبائل السامية الآرامية على الحدود الفلسطينية فنرى أن الآراميين يغيرون على العديد من حواضر العالم المتمدن في منطقة الشرق الأوسط في أوائل الألف الأول قبل الميلاد ويتمركزون فيها لفترات طويلة بعد أن انسلخوا عن بداوتهم وذابوا في بوتقة المدينة التي اكتسبوها والمدينة كمانعرف هي حصيلة تطورزمني طويل لشعوب سامية أخرى سبقتها فتوارثتنها وأورثتها فيما بعد لأقوام وشعوب أتت بعدها وكانت القبائل الآرامية التي التي انطلقت من الجنوب نحو الشمال تضم بعض القبائل التي سميت فيما بعد بالعبرية بعد أن تمركزت في ارض كنعان وتأثرت بالحضارة الرافدية أثناء اشتراكها بالغزو على وادي الرافدين مع بقية القبائل الآرامية ، فتأثرت بحضارة ومدنية الشعوب التي غزتها وبقيت بعض الأدبيات البابلية والاشورية وأخيرا الكنعانية عالقة في ذهنها . وعندما استقرت في بلاد كنعان وتعرضت للغزو الاشوري مرات عديدة وأخيرا الغزو البابلي بقيادة نبوخذ نصر حيث اقتلعهم من جذورهم ونفاهم الى بابل ، وجدوا متسعا من الوقت ليفلسفوا تاريخهم ويعزّوا أنفسهم بأحلام العودة الى أورشليم ، وقد تكون نسبة العبريين اليهم مجرد تسمية لفظية أخذوها من قبائل الخابيرو والتي ترد في النصوص المصرية تحت اسم أبيرو ، ومن المعتقد أن أحفاد هذه القبائل قد اندمجوا فيما بعد مع بعض القبائل السامية الآرامية الأخرى وأعطوها اسمهم وأصبحت التسمية جارية على مبدأ الجزء الذي يعني الكل كما شاهدنا ذلك في تسمية السومريين مارتولكل القبائل البدوية السامية التي كانت تهدد أمنهم من ناحية الغرب .

اذن لاصحة للزعم القائل بانطلاق العبريين بزعامة رئيس عشيرتهم ابراهيم من مدينة اور البابلية في جنوب بلاد الرافدين الى أرض الميعاد ليكثر نسلهم ويسودوا الأرض التي كثر الوعد بها على لسان ابراهيم واسحق ويعقوب . وقد اكتسب العبريون ثقافة سومرية بابلية آشورية اثناء الأسر في بابل وعكسوا ثقافتهم المكتسبة في تدوين تاريخهم التوراتي ، ونرى أثر هذه الثقافة واضحا في مسلة حمورابي التي تحوي شريعته المشهورة .

يقف الملك خاشعا امام اله العدالة شاماش المتربع على عرشه ليستقبل منه السنن والقوانين التي أقرها الاله لتكون مرجعا للقضاة في أنحاء الدنيا الأربع الخاضعة لسلطان حمورابي ، ويذكر حمورابي في مقدمة شريعته أن الآلهة آنووانليل وشاماش ومردوخ اختارته لينفذ مشيئتها ويحكم بشرعها ، ويهب شعبه الرخاء والرفاهية ، ومما يلفت النظر في المسلة المنحوتة كون حمورابي اسفل الجبل الذي يتربع فوقه الاله على كرسي العرش ويذكرنا هذا المشهد بموقف موسى أسفل الجبل عندما تراءى له يهوه فوق الجبل ليعطيه الوصايا ، ومن قوانين حمورابي التي تأثر بها كتاب التوراة المعاملة بالمثل « السن بالسن والعين بالعين » .

وقصة مولد موسى لاتخفي منشوءها البابلي في اسطورة مولد الملك الاكادى سرجون : « أنا صارغون العظيم ملك أكاد : كانت أمي فقيرة ، ولم أتعرف على أبي ، كان يقطن الجبال ، ومدينتي ازوبيرانو تقع على ضفة الفرات . وقد ولدتني أمي الفقيرة خلسة في السر فوضعتني داخل صندوق من القصب ، وأغلقت بابه بأسفلت ورمتني في النهر الذي لم يكن قويا ، فرفعني النهر الى آكي الساقي ، فانتشلني آكي من النهر برفق . وآكي الساقي تبناني ورباني وصنع مني بستانيا ، أثناء عملي كبستاني أغرمت بي عشتار ، وجعلتني ملكا على أكاد » [١٤]

وقصة النسب الاسطورية تشير دون أدنى ريب الى اغتصاب السلطة الشرعية في أكاد على يد صارغون وأسم الملك بالذات كما يلفظ بلغته الأصلية شاروكين الملك الشرعي يعطي الدليل على ذلك ، اذ أن كل مغتصب للحكم كان يسمى نفسه الملك الشرعي ويرفع نسبه الوضيع الى الآلهة . ولم تكن هذه الاسطورة البابلية خافية على بني اسرائيل عندما شرعوا يكتبون تاريخهم فأخذوا القصة البابلية جاهزة والبسوها الرداء المصري الذي يتلاءم مع البيئة والجو المصريين لتنسجم مع سياق القصة في أرض مصرية . أما كيف وصل بنو اسرائيل الى مصروكيف خرجوا منها على يد قائدهم ومحررهم موسى ليملكوا الأرض الموعودة في كنعان فلا نملك من المصادر والوثائق التاريخية شيئا غير التوراة ومسلة وحيدة يرد فيها أقدم ذكر لبني اسرائيل خارج أسفار العهد القديم ونظرا لعدم وجود مسلة أخرى تذكر أسم اسرائيل سميت المسلة بمسلة اسرائيل . وقد خلّد فيها الفرعون المصري مرنبتاح (١٢٢٤–١٢١٤) ق.م. انتصاراته التي أحرزها على الليبيين والكنعانيين في السنة الخامسة لحكمه .

ويتباهى في النص بأنه أخضع كل الأمراء الذين يقولون نشالوم وفتح كنعان بكل شرورها وجعل من اسرائيل صحراء بعد أن قضى على ذريتها [١٥] .

وقد ذهب بعض اللاهوتيين بأفكارهم بعيدا اذ رأوا في مرنبتاح - الفرعون المصري الذي تم في عهده خروج بني اسرائيل من مصر على يد موسى والذي غرق في البحر أثناء مطاردته للاسرائيليين الهاربين . ونحن لانجد أي ذكر لاقامة الاسرائيليين في مصر أو خروجهم منها على أي نصب من الأنصاب أو أي نحت من المنقوشات العديدة التي تزدان بها معابد وقبور الفراعنة في مصر ، فكيف غاب سرد مثل هذا الحادث الجليل عن الكتبة المصريين ؟ واذا وجد بعض الملتزمين بصحة التوراة في مرنبتاح الفرعون المصري الذي تم في عهده خروج بني اسرائيل ومن ثم غرقه في البحر تصديقا لما ورد في التوراة من أن اليهود ساعدوا في بناء مدينة رمسيس (نسبة الى الفرعون رمسيس) اذن لابد ان يكون رمسيس الثاني وخلفه مرنبتاح الفرعونين اللذين تم في عهدهما اضطهاد بني اسرائيل ، الاّ ان مومياء الفرعون مرنبتاح التي اكتشفت عام

١٨٩٨ في القبر رقم / ٣٥/ في وادي الملوك لم تظهر أي أثر لحادثة غرق [١٦] . أما التفسير التاريخي فيمكن أن نجمله بما يلي :

بما أن العشائر الاسرائيلية كانت تعيش على اطراف فلسطين دون أن يكون لها تاريخ وماض مسجل انسلخ بعضها واندمج مع قبائل سامية أخرى آرامية وكنعانية ، منها ما انطلق باتجاه الشمال مع القبائل الآرامية التي اشتد ساعدها وصلب عودها لتخلف الشعوب السامية الأخرى في حضارتها ، ومنها ماالندمج مع الكنعانيين في فلسطين دون أن يكون لكليهما شخصية مستقلة معروفة كالتي ظهرت فيما بعد زمن سليمان ، وبما ان فلسطين كانت معرضة للغزو المصري فليس من المستبعد أن يساق العديد من الأسرى الى مصر ويكلفوا بأعمال السخرة في بناء المعابد والمدن وكل النقوش والكتابات المصرية التي عنيت بتصوير تلك الحوادث كانت تشير الى شعوب آسيوية من سكان كنعان دون ان تحدد أسماء بعينها .

واعتقادي أن وجود بعض اليهود في مصر لم يكن بمحض اختيارهم وانما رغماعنهم لكونهم أسرى ، وكبرهان على ذلك قيامهم بأعمال السخرة ، وقد استطاع بعضهم على ما يظهر الهرب من مصر للتخلص من هذه الاعمال واللجوء الى أقاربهم في كنعان .

وفي فترة ضعف الامبراطوريتين الكبيرتين الحثية والمصرية وانهماك دول الدويلات الكنعانية في تدمير بعضها أتيحت الفرصة لاحدى العشائر اليهودية المقيمة بينها لتنقض عليها ، وتحل محلها بعد ان توارثت حضارتها كما هو الحال في معظم دول الشرق القديم وكلمة اسرائيل نفسها ليست اسرائيلية وانما كنعانية وتعني ليؤازرايل وكذلك اسماعيل ليسمع ايل فلماذا يتكرر اسم الاله ايل في الاسماء العبرية واله العبريين يسمى يهوه الذي كان معروفا تحت اسم آخر هو ايلوهيم ويعني الآلهة (جمع كلمة ايلوه العبرية أوايل الاله الكنعاني) وهذا دليل آخر على عدم وجود فكرة التوحيد في الأصل لدى الآباء الاوائل لبني اسرائيل .

مما تقدم يتضح ان اسرائيل ابتدعت لنفسها تاريخا عريقا في وقت متأخر ونسبت جذوره الى أرض الرافدين (مسقط رأس ابراهيم في أور البابلية) والشمال السوري في حران والجنوب في كنعان ومن ثم أرض الكنانة مصـــر .

وكل هذا التاريخ كتب في عصر واحد وزمن واحد بالتزام واحد ، هو اظهار شعب الله المختار وحدة متناسقة أصيلة في أرض الحضارات . وكل قول يدعي بوجود شعب عبري أصيل متحد ذي تاريخ متسق تجمعه فكرة الاله الواحد من أوركلدان الى أرض كنعان هو ادعاء باطل وزيف تاريخي ذو أهداف سياسية مبرمجة لتبرير استيلاء اليهود على ارض ليست أرضهم ومد تطلعاتهم الاستعمارية الى الاماكن التي دخلها آباؤهم من الفرات الى النيل وقد آن الوقت للعقل العربي ليتحرر من الاسرائيليات ويكشف تاريخه بنفسه بما تقدمه اعمال التنقيب الأثرية وان تعارضت المعارف الجديدة المكتسبة مع ما هو معروف ومتوارث من خلال الكتب المقدسة فتعارضها غير ملزم بعدم الايمان بها ، لأن لكل منها منطلق يختلف في جوهره وهدفه عن جوهر وهدف الآخر وأكتفي بقول المفكر الاسلامي المعاصر الدكتور محمد أحمد خلف الله في معرض دراسته عن القصص القرآنية : اما تلك « يقصد بذلك القصص القرآنية التاريخية ، التي يقصد منها الى العظة والعبرة والى الهداية والارشاد فانه لا يلزم أن يكون مافيها هو التاريخ فقد يكون المعارف التاريخية عند العرب أو عند اليهود وهذه المعارف لا تكون دائماً مطالبة للحق والواقع » .

وقول الأستاذ سيد قطب في كتابه التصوير الفني في القرآن... وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها ، وفي طريقة عرضها ، اوادارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية .

فغرض القرآن كما واضح غرض ديني انساني عالمي بحت وكذلك الانجيل وعلى عكس ذلك التوراة التي شوه احبارها النصوص المقدسة وتصرفوا بها لأهداف سياسية عنصرية متحيزة .

هامش

١ – UR, Eva Strommenger, München 1954.

٢ – E. Heinrich, Archiv für Orientforschong 18,1957/1958, 134

٣ – Abraham and the Merchants of Ura, Journal of Near Eastern Studies 17, 1958,28ff.

٤ – H, Klengel, Geschichte Syriens in 2 Jahrtausend v.u.Z. Teill-Nordsyrien Berlin 1955,251

٥ – Dr.E. Schertel, Das Problem der Herkunft des Jüdischen Volkes in neum Licht, Neue Zeitung 1950.

٥ أ H. Gressmann, Mose und seine Zeit, Göttingen 1913,39 ff.

٦ – نفس المصدر السابق .

٧ – عن كوركيس عواد اثار العراق في نظر الكتاب العرب الاقدمين ، سومر المجلد الخامس ١٩٤٩ .

٧ أ – محمد احمد خلف الله ، الفن القصصي القرآني الكريم – القاهرة ١٩٥٠ ص ٥١–٥٢

٨ – عن كوركيس عواد نفس مصدر حاشية رقم ٧ .

٩ – H, Gressmann, Mose.....S.396ff.

١٠ – عباس محمود العقاد ابو الانبياء الخليل ابراهيم سلسلة كتاب اليوم ١٩٥٣ . ص ١٦٠

١١ – نفس المصدر السابق . ص ١٨٤

١٢ – Fischerweltgeschichte, Die Altorientalischen Reiche 1, Frankfurt am Main 1965, 167ff.

١٣ – J. Hoftijzer, Die Verheissungen an die Drei Erzväter, Leiden 1956.

١٤ – H. Gressmann, Mose.....S.8ff.

١٥ – Fischerweltgeschichte, Die Altorientalischen Reiche 11. Frankfurt am Main 1966,276.

١٦ – نفس المصدر السابق .